

تفسير السعدي

@ 631 @ تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم ، وآثارهم ، التي بانوا عنها . وقد جاءتهم
رسلمهم بالآيات البينات ، المفيدة للبصيرة فكذبوهم ، وجادلوهم . ^ (وعادا وئمود وقد
تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين *
وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين *
فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به
الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان ليطلمهم ول كن كانوا أنفسهم يظلمون) ^ ! 2 2 ! حتى
طنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل . وكذلك قارون ، وفرعون ، وهامان ، حين بعثنا
إليهم موسى بن عمران ، بالآيات البينات ، والبراهين الساطعات ، فلم ينقادوا ، واستكبروا
في الأرض ، على عبادنا ، فأذللوهم ، وعلى الحق فردوه ، فلم يقدرُوا على النجاء حين نزلت
بهم العقوبة . ! 2 2 ! ! 2 2 ! ، ولا فائتين ، بل سلموا واستسلموا . ! 2 2 ! من هؤلاء الأمم
المكذبة ! 2 2 ! على قدره ، وبعقوبة مناسبة له . ! 2 2 ! أي : عذابا يحصهم ، كقوم
عاد ، حين أرسلنا عليهم الريح العقيم ، و ! 22 ! . ! 2 2 ! كقوم صالح ، ! 2 2 !
كقوم صالح ، ! 2 2 ! كقارون . ! 2 2 ! كفرعون وهامان ، وجنودهما . ! 2 2 ! أي : ما
ينبغي ولا يليق به ! 2 2 ! لكمال عدله ، وغناه التام ، عن جميع الخلق . ! 2 2 !
منعوها حقها ، الذي هي بصدده ، فإنها مخلوقة لعبادةنا وحده . فهؤلاء وضعوها في غير
موضعها ، وشغلوها بالشهوات والمعاصي ، فضروها غاية الضرر ، من حيث طنوا أنهم ينفعونها
^ . (مثل الذين اتخذوا من دوننا أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت
لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون * إننا يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز
الحكيم * وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) ^ هذا مثل ضربه لنا ، لمن
عبد معه غيره ، يقصد به التعزز والتقوي ، والنفع ، وأن الأمر بخلاف مقصوده ، فإن مثله
كمثل العنكبوت ، اتخذت بيتا يقيها من الحر والبرد والآفات . ! 2 2 ! أي : أضعفها
وأوهاها ! 2 2 ! . فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة ، وبيتها من أضعف البيوت ، فما
ازدادت باتخاذها إلا ضعفا . كذلك هؤلاء ، الذين يتخذون من دونه أولياء ، فقراء ، عاجزون ،
من جميع الوجوه ، وحين اتخذوا الأولياء من دونه ، يتعززون بهم ، ويستنصرونهم ، ازدادوا
ضعفا إلى ضعفهم ، ووهنا إلى وهنهم فإن اتكلوا عليهم ، في كثير من مصالحهم ، وألقوها
عليهم ، تخلوا هم عنها . على أن أولئك سيقومون بها . فخذلوهم ، فلم يحصلوا منهم على
طائل ، ولا أنالوهم من معونتهم ، أقل نائل . فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم حالهم ، وحال

من اتخذوهم ، لم يتخذوهم ، ولتبرؤوا منهم ، ولتولوا الرب القادر الرحيم ، الذي إذا
تولاه عبده ، وتوكل عليه ، كفاه مؤونة دينه ودنياه ، وازداد قوة إلى قوته ، في قلبه
وبدنه وحاله وأعماله . ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين ارتقى من هذا ، إلى ما هو
أبلغ منه ، وأنها ليست بشيء ، بل هي مجرد أسماء سموها ، وطنون اعتقدها . وعند التحقيق
، يتبين للعاقل بطلانها وعدمها ، ولهذا قال : ^ (إن ا يعلم ما يدعون من دونه من شيء)
^ أي : إنه تعالى يعلم وهو عالم الغيب والشهادة أنهم ما يدعون من دون ا شيئاً موجودا ،
ولا إلها له حقيقة ، كقوله تعالى : ! 2 2 ! . وقوله : ! 22 ! . ! 2 ! 2 ! الذي له
القوة جميعا ، الذي قهر بها جميع الخلق . ! 2 2 ! الذي يضع الأشياء مواضعها ، الذي
أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن ما أمره . ! 2 2 ! أي : لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم لكونها من
الطرق الموضحة للعلوم ، لأنها تقرب الأمور المعقولة ، بالأمور المحسوسة فيتضح المعنى
المطلوب بسببها ، فهي مصلحة لعموم الناس . لكن ! 2 2 ! بفهمها وتدبرها ، وتطبيقها على
ما ضربت له ، وعقلها في القلب . ^ (إلا العلمون) ^ أي : إلا أهل العلم الحقيقي ، الذين
وصل العلم إلى قلوبهم . وهذا مدح للأمثال ، التي يضربها ، وحث على تدبرها وتعقلها ،
ومدح لمن يعقلها . وأنه عنوان على أنه من أهل العلم ، فعلم أن من لم يعقلها ، ليس من
العالمين . والسبب في ذلك ، أن الأمثال التي يضربها ا في القرآن ، إنما هي للأمور
الكبار ، والمطالب العالية ، والمسائل الجلية . فأهل العلم ، يعرفون أنها أهم من
غيرها ، لاعتناء ا بها ، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها . فيبدلون جهدهم في معرفتها .
وأما من لم يعقلها ، مع أهميتها ، فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم ، لأنه إذا لم
يعرف المسائل المهمة ، فعدم معرفته غيرها ، من باب أولى وأحرى . ولهذا ، أكثر ما يضرب
ا الأمثال في أصول الدين ، ونحوها . ! 2 2 ! أي : هو تعالى ، المنفرد بخلق السموات ،
على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة .
والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار ، والأشياء ونحوها . وكل ذلك خلقه
بالحق ، أي لم يخلقها عبثا ، ولا سدى ، ولا لغير فائدة . وإنما خلقها ، ليقوم أمره وشرعه
، ولتتم نعمته على عباده ، وليروا من حكمته ، وفهره وتدبيره ، ما يدلهم على أنه وحده ،
معبودهم ، ومحبوبهم ، وإلههم . ! 2 2 ! على كثير من